الملخص من تحضير: عيران حداد (ערן חדד)

الأهمية الجيوسياسية - الدولية للشرق الأوسط

تُعنى "الجيوسياسة" بدراسة العلاقة المتبادلة بين الظواهر الجغرافية (الطبيعية أو البشرية) وبين العلاقات السياسية القائمة بين الدول. وتشمل الجيوسياسة جملة من القضايا الجوهرية، مثل: ترسيم الحدود السياسية، والسيطرة على الثروات والموارد الطبيعية كالمياه والنفط ("الذهب الأبيض" و"الذهب الأسود")، بالإضافة إلى إحكام السيطرة على الممرات المائية الحيوية كالمضايق البحرية والقنوات الملاحية. وفي هذا السياق، يُستغل الوفر النفطي الهائل لدى الدول العربية لتحقيق مآرب وغايات سياسية.

وعلى مر التاريخ، اندلعت حروب ونزاعات عديدة على خلفية عوامل جغرافية؛ فعلى سبيل المثال: تعود خلفية حرب الأيام الستة (حرب 1967) إلى إقدام مصر على إغلاق مضائق تيران أمام حركة الملاحة والسفن الإسرائيلية، وإلى المحاولات السورية الرامية لتحويل مصادر مياه نهر الأردن. كما كان الغزو العراقي لدولة الكويت محاولة لتوسيع الشريط الساحلي للعراق والمطل على الخليج العربي، وغير ذلك من النزاعات.

العوامل الجغرافية التي تمنح الشرق الأوسط مكانة وأهمية دولية، وتجعله محط أنظار واهتمام دول العالم:

1. يشكل الشرق الأوسط جسراً برياً، وبحرياً، وجوياً يربط بين ثلاث قارات (آسيا، إفريقيا، أوروبا):

أ. **"جسر بري":** تتقاطع في أراضي الشرق الأوسط مجموعة من الطرق والمسالك البرية التاريخية البالغة الأهمية، والتي سلكتها الجيوش والقوافل التجارية عبر العصور، ونشأت وازدهرت على امتدادها حواضر ومدن كبرى ذات ثقل تاريخي؛ مثل حملات الصليبيين، وحملات نابليون، وحملات البابليين والفرس، وفتوحات الإسكندر الأكبر، وحملات المغول القادمة من أواسط آسيا، وحملة الجيش الألماني إبان الحرب العالمية الثانية التي تصدت لها القوات البريطانية وأوقفت تقدمها في معركة العلمين الشهيرة غرب مدينة الإسكندرية في مصر.

- **"طريق الحرير":** طريق تجاري ربط بين أوروبا والصين، وعبر الأجزاء الشمالية من الشرق الأوسط في نطاق تركيا وإيران (مروراً بإسطنبول وأنقرة في تركيا، وطهران ومشهد في شمال إيران)، واستُخدم بصورة رئيسية لنقل الحرير والسلع الثمينة من الصين.
- **"طريق البحر":** محور ربط بين "بلاد الرافدين" (العراق) و"أرض النيل" (مصر). انطلق هذا الطريق من البصرة جنوبي العراق، مروراً ببغداد، دمشق، يافا، عسقلان، غزة، وصولاً إلى القاهرة. ويتطابق هذا المسار إلى حد كبير مع الامتداد الجغرافي لـ "الهلال الخصيب".
- **"طريق الملك":** محور طولي بارز إبان العهد العثماني، ربط بين المركز السياسي للإمبراطورية في إسطنبول وبين المركز الديني والروحي في مدينتي مكة المكرمة والمدينة المنورة في إقليم الحجاز غربي المملكة العربية السعودية. وبمحاذاة هذا المسار التاريخي أُنشئت لاحقاً "سكة حديد الحجاز".

وقد ترتب على المكانة التاريخية للشرق الأوسط بوصفه "جسراً برياً" رئيساً أثران بارزان:

- نشوء وازدهار مدن وعواصم كبرى لعبت دوراً محورياً في التاريخ الإنساني، مثل: القاهرة، بغداد، ودمشق.
- تشكّل نسيج سكاني وديموغرافي شديد التنوع والتعددية في الشرق الأوسط.

ب. "جسر بحري": تحتضن أراضي ومياه الشرق الأوسط عدداً من الممرات المائية والمضايق البحرية، الطبيعية والاصطناعية، التي تُصنف ضمن الأهم على المستوى العالمي:

- **قناة السويس:** ممر ملاحي اصطناعي يربط البحر الأبيض المتوسط بخليج السويس ومنه إلى البحر الأحمر، وبذلك تختصر المسافة البحرية المباشرة من أوروبا إلى الشرق الأقصى دون الحاجة للالتفاف حول القارة الإفريقية (عبر رأس الرجاء الصالح). وتحظى القناة بأهمية استراتيجية بالغة لنقل السلع التجارية وناقلات النفط العملاقة المتجهة من الخليج العربي إلى أوروبا. يبلغ طول القناة نحو 195 كم، وقد جرى تعميقها على مر السنين ليصل غاطسها إلى 25 متراً، وتوسيع عرضها حتى 365 متراً (بعد أن كان عرضها الأولي يقل عن 100 متر)، بهدف استيعاب أحدث سفن الشحن والحاويات العملاقة. وتستغرق رحلة عبور السفن في القناة قرابة 15 ساعة.

أهمية وعوائد القناة لمصر:

أ. مصدر دخل قومي حيوي من النقد الأجنبي (من خلال تحصيل رسوم العبور والضرائب).

ب. تعزيز المكانة الجيوسياسية والاستراتيجية لمصر على الساحة الدولية.

ج. ازدهار وتطور المدن الواقعة على طول القناة: بورسعيد، السويس، والإسماعيلية؛ وهي مدن ساحلية وموانئ تنشط فيها الحركة التجارية والصناعات النفطية ومصافي التكرير، فضلاً عما توفره أعمال الصيانة والتشغيل الملاحي من فرص عمل واسعة لآلاف السكان.

وتجدر الإشارة إلى أن قناة السويس تكتسب ثقلها الأساسي من نقل البضائع والشحنات النفطية، في حين يتراجع استخدامها في نقل الركاب والمسافرين الذين يفضلون النقل الجوي السريع.

منذ افتتاحها، شكلت قناة السويس بؤرة للنزاعات والحروب والتدخلات الاستعمارية الأجنبية؛ من التنافس الفرنسي-البريطاني على إدارتها، إلى إغلاقها عام 1956 على إثر العدوان الثلاثي (بريطانيا، فرنسا، وإسرائيل) ضد مصر. كما أُغلقت القناة تماماً بين عامي 1967 و1973 بسبب حرب الأيام الستة، وحرب الاستنزاف، وحرب يوم الغفران (أكتوبر 1973)، مما ألحق خسائر وأضراراً فادحة بالاقتصاد المصري وبالتجارة والاقتصاد العالمي على حد سواء.

وقد شهدت حركة نقل النفط عبر قناة السويس تراجعاً نسبياً لعدة أسباب:

أ. الحمولات الضخمة لناقلات النفط العملاقة الحديثة (Super tankers) التي تعجز عن العبور بكامل حمولتها في القناة.

ب. مد خطوط أنابيب النفط البرية البديلة لمسار القناة.

ج. تحول اليابان ودول شرق آسيا إلى مستهلك رئيسي لنفط الشرق الأوسط، وتلك مسارات بحرية تتجه شرقاً ولا تحتاج إلى المرور عبر قناة السويس.

- **مضيق باب المندب:** ممر مائي طبيعي استراتيجي يربط البحر الأحمر ببحر العرب (الذي يشكل جزءاً من المحيط الهندي).
- **مضيق هرمز:** مضيق وممر مائي طبيعي يصل بين مياه الخليج العربي وخليج عُمان وبحر العرب. ويعد هذا الممر بؤرة توتر واحتكاك دولي دائم نظراً لأهميته القصوى في إمدادات وتدفق النفط العالمي من الخليج العربي؛ إذ غالباً ما تواجه ناقلات النفط أخطار وتهديدات أمنية جمة أثناء الحروب والأزمات الإقليمية (مثل حرب الناقلات خلال حرب العراق وإيران في الثمانينيات، وحرب الخليج الأولى عام 1991).

- **مضائق تيران:** تصل بين خليج إيلات (خليج العقبة) والبحر الأحمر، ومنه نحو المحيط الهندي أو البحر المتوسط. وتكتسب أهمية اقتصادية قصوى للأردن لكونها تمثل منفذه البحري الوحيد نحو العالم الخارجي. وفي عام 1967، قرر الرئيس المصري جمال عبد الناصر إغلاق مضائق تيران بوجه الملاحة والسفن الإسرائيلية، وكان هذا الإجراء دافعاً وسبباً رئيسياً لاندلاع حرب الأيام الستة وتوجيه إسرائيل ضربتها العسكرية لمصر في يونيو 1967.

- **مضيقا البوسفور والدردنيل**: ممران مائيان طبيعيان يقعان داخل الأراضي التركية؛ حيث يربط البوسفور البحر الأسود ببحر مرمرة، بينما يصل الدردنيل بحر مرمرة بالبحر الأبيض المتوسط عبر بحر إيجة. وتقع مدينة إسطنبول التاريخية على ضفتي مضيق البوسفور. ولهذين المضيقين ثقل استراتيجي وعسكري بالغ يعزز من مكانة تركيا الدولية؛ فقد سعت القوى الأوروبية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر إلى قطع وصول روسيا القيصرية عبرهما إلى البحر الأبيض المتوسط الدافئ (الذي لا تتجمد مياهه في الشتاء بخلاف بحار وموانئ روسيا الشمالية المتجمدة)، وتواصلت هذه التجاذبات الاستراتيجية ضد الاتحاد السوفيتي طوال فترة "الحرب الباردة" وحتى تفككه.

وتصنف المضايق البحرية الطبيعية كممرات دولية يحظر إغلاقها، ويُعد منع سفن أي دولة من عبورها بمثابة ذريعة وإعلان للحرب، كما أن الملاحة والمرور عبر هذه المضايق الطبيعية يتم مجاناً ودون تحصيل رسوم عبور.

ج. "جسر جوي": يختصر الشرق الأوسط مسارات وخطوط الطيران بين أوروبا والشرق الأقصى وإفريقيا. كما يتميز بإقليم مناخي ملائم للطيران على مدار غالبية شهور السنة (ندرة العواصف والضباب والغيوم الكثيفة). وتبرز في المنطقة مطارات وموانئ جوية ذات شأن دولي ومحوري، مثل: القاهرة، طهران، وأبو ظبي.

2. الشرق الأوسط إقليم زاخر بالنفط:

تستقر في باطن أراضي الشرق الأوسط نحو 65% من إجمالي احتياطيات النفط المؤكدة والمعروفة عالمياً، ولا سيما في حوض الخليج العربي والدول المحيطة به. وقد غدا الشرق الأوسط المورد الرئيسي للنفط والطاقة للدول الصناعية المتقدمة مثل اليابان، وأوروبا، والولايات المتحدة الأمريكية. وتحرص الدول الغربية دوماً على ضمان التدفق الحر والآمن للنفط لضمان دوران عجلة صناعاتها، وتسعى للحفاظ على أسعار متوازنة ومنخفضة نسبياً لبرميل النفط، علماً بأن القسم الأعظم من نفط الشرق الأوسط يُنتج لغرض التصدير الخارجي.

في الوقت نفسه، تتخوف الدول الغربية (الولايات المتحدة وأوروبا) من تصاعد التيارات الدينية الراديكالية وتأثيرها المباشر على مصالحها الاقتصادية، وتخشى من التهديدات الإرهابية أو محاولات بسط النفوذ والسيطرة الإيرانية على مقدرات النفط في المنطقة.

يمتاز نفط الشرق الأوسط بثلاث ميزات تفضيلية رئيسية:

- الوفرة والضخامة: مكامن واحتياطيات هائلة؛ فكل بئر نفطية تدر إنتاجاً ضخماً بالمقارنة مع الآبار في الدول الغربية.
- انخفاض تكلفة الاستخراج وسهولته النسبية.
- القرب الجغرافي من أسواق ومراكز الاستهلاك الكبرى في غرب أوروبا.

المكاسب والمزايا التي جناها النفط للدول المنتجة له:

- مصدر دخل أساسي من عائدات التصدير، وبناء قوة اقتصادية متينة، وتحقيق قفزات كبرى في الناتج المحلي الإجمالي (GDP).

- توظيف العائدات المالية في التنمية الشاملة والنمو الاقتصادي: تأسيس الصناعات، وتشييد البنى التحتية وقطاعات النقل، وتنويع مصادر وفرص العمل مما أدى إلى استقطاب هجرات عمالية واسعة إلى دول الخليج، والارتقاء بمستوى المعيشة، وتوفير الخدمات العامة، ونشوء مدن وتجمعات سكانية حديثة مع نمو سكاني متسارع على سواحل الخليج العربي، فضلاً عن دعم المشاريع الزراعية عبر تحلية مياه البحر (الزراعة المروية، وتجربة زراعة القمح في السعودية).
- اكتساب نفوذ ووزن سياسي دولي، واستخدام النفط كـ "سلاح سياسي" لتحقيق مكاسب ومصالح سياسية إقليمية ودولية.

وقد أدت الأحداث والحروب السياسية في المنطقة إلى تقلبات وقفزات حادة في أسعار الطاقة؛ وخير مثال على ذلك "أزمات النفط" في السبعينيات في أعقاب حرب يوم الغفران عام 1973، واندلاع الثورة الإسلامية في إيران عام 1979. وعندما ترتفع أسعار النفط لمستويات قياسية، تلجأ الدول الغربية المتقدمة لتقليص استيرادها والتوسع في استغلال مصادر الطاقة البديلة، مما يترتب عليه انخفاض العوائد النفطية وتباطؤ وتيرة النمو الاقتصادي في الدول المنتجة.

ومن الأحداث المؤثرة كذلك: حرب الخليج الأولى عام 1991 وتدخل الولايات المتحدة إثر اجتياح العراق للكويت واحتلالها، ثم إرغام الجيش العراقي على الانسحاب حيث قام بإشعال النيران في نحو 600 بئر نفطية كويتية. يضاف إلى ذلك حرب العراق وإيران، وحرب الخليج الثانية (عام 2003) التي أسفرت عن إسقاط نظام صدام حسين وإرساء إدارة أمريكية مؤقتة.

3. الصراع العربي - الإسرائيلي:

هزت الحروب المندلعة بين إسرائيل والدول العربية أركان العالم وأثرت سلباً على الاقتصاد الدولي؛ سواء جراء ارتفاع أسعار الطاقة (أزمات النفط) أو إغلاق قناة السويس. وتسعى قوى دولية عديدة للقيام بدور "الوسيط" بين إسرائيل وجيرانها في مسعى لحل "القضية الفلسطينية"، تحقيقاً لمصالح سياسية خاصة وتثبيتاً لموطئ قدم ونفوذ لها في الشرق الأوسط (مثل مؤتمرات السلام، اتفاقيات أوسلو، وغيرها). وقد ساهم هذا الصراع في تغذية بؤر العنف وتصاعد نشاط المنظمات المسلحة عالمياً.

كما جعلت حالة التوتر والحروب من الشرق الأوسط مستورداً ومستهلكاً كبيراً للسلاح ومعدات القتال المصنعة في دول العالم (لا سيما في الولايات المتحدة وأوروبا). وخلال حقبة "الحرب الباردة" والتنافس الحاد بين المعسكر الشيوعي بقيادة الاتحاد السوفيتي والمعسكر الغربي بقيادة الولايات المتحدة، أُبرمت صفقات تسليح ضخمة مع دول المنطقة؛ حيث سعت كل قوة عظمى إلى تعزيز نفوذها وهيمنتها في الشرق الأوسط عبر بوابة مبيعات السلاح.

وفي عام 1991 عُقد "مؤتمر مدريد للسلام" بهدف تهدئة الصراع والتقدم نحو تسوية سلمية شاملة، وتشكلت لجان عمل دولية لمتابعة قضايا حيوية: ملف المياه، التعاون الاقتصادي، قضية اللاجئين الفلسطينيين، ضبط التسلح، وحماية البيئة. وبموازاة ذلك، انطلقت مفاوضات ثنائية بين إسرائيل والأردن برعاية أمريكية أثمرت عن توقيع معاهدة السلام عام 1994 (كما جرى سابقاً التوصل إلى اتفاقية السلام بين إسرائيل ومصر عام 1978 برعاية أمريكية). وفي التسعينيات أيضاً، فُتح مسار التفاوض الإسرائيلي-الفلسطيني الذي تمخض عن اتفاقيات أوسلو برعاية غربية.

4. الشرق الأوسط كمركز ديني وروحي:

يحتضن الشرق الأوسط أقدس المعالم الدينية للديانات السماوية الثلاث، ومدناً مقدسة تاريخية، مثل: أورشليم القدس، الخليل، بيت لحم (في إسرائيل)، ومكة المكرمة والمدينة المنورة في المملكة العربية السعودية. وتشكل هذه الأماكن مقاصد رئيسية للسياحة الدينية وقوافل الحج؛ كحج المسيحيين في أعياد الميلاد إلى الأماكن المقدسة المسيحية في إسرائيل (بيت لحم)، وتدفق الحجاج المسلمين من

أرجاء المعمورة إلى مكة المكرمة. بيد أن الاضطرابات ونشاط الجماعات المسلحة يلحقان ضرراً بالغاً بالسياحة عموماً والسياحة الدينية على وجه الخصوص.

موقع إسرائيل في قلب الشرق الأوسط:

تُمثل إسرائيل "قلب" ومركز الشرق الأوسط للاعتبارات التالية:

1. المركز الجغرافي: تقع إسرائيل في القلب الجغرافي للشرق الأوسط، وتعد الممر الأبرز كجسر واصل بين القارات الثلاث، وبشكل خاص بين إفريقيا وآسيا؛ فالربط البري بين مصر وسوريا أو الأردن والعراق لا يتحقق إلا عبر أراضيها. كما أن موقع إسرائيل الجغرافي يقطع الاتصال والمنفذ المباشر للأردن على البحر الأبيض المتوسط.

2. الصراع العربي - الإسرائيلي: تشكل إسرائيل بؤرة ومحور اهتمام الدول الكبرى خارج الإقليم فيما يتصل بمساعي تسوية النزاع وإحلال الاستقرار.

3. الثقل الديني للديانات التوحيدية الثلاث: تضم إسرائيل مدناً ومواقع بالغة القداسة، مثل: أورشليم القدس، الخليل، الناصرة، وبيت لحم.

4. التحولات الديموغرافية الناتجة عن الحروب: أحدثت الحروب مع الدول المجاورة تغييرات جذرية في الجغرافيا البشرية للمنطقة؛ ففي عام 1948 لجأت أعداد كبيرة من السكان الفلسطينيين من إسرائيل نحو الأردن ولبنان. ونتيجة لذلك، أضحى غالبية سكان الأردن من أصول فلسطينية بينما استقرت غالبية يهودية في إسرائيل. كما أدى اللجوء الفلسطيني إلى لبنان إلى الإخلال بالتوازن الديموغرافي والطائفي الدقيق هناك، وساهم بشكل غير مباشر في اندلاع الحرب الأهلية اللبنانية عام 1975 وما تلاها من ظهور ونشاط الفصائل والمنظمات المسلحة.

ما هي إيجابيات وسلبيات موقع الشرق الأوسط كجسر يربط بين ثلاث قارات؟

الإيجابيات والحسنات:

أ. عوائد مالية مجزية: تحصيل إيرادات مالية ضخمة ورسوم عبور من الممرات المائية والمضايق الاستراتيجية؛ ومثال ذلك العائدات الكبيرة التي تجنيها مصر من عبور السفن في قناة السويس، وتركيا من الملاحة عبر مضيقي البوسفور والدردنيل.

ب. تطوير البنية التحتية: نظراً لوفرة الاحتياطيات النفطية، تمتد شبكات واسعة من خطوط أنابيب النفط لاختصار مسافات النقل نحو أوروبا، وقد حفزت هذه الخطوط مشاريع تطوير وتنمية عمرانية للمناطق المحيطة بها عبر شق الطرق وتوفير شبكات الكهرباء وإنشاء تجمعات سكانية جديدة.

ج. التفاعل والتمازج الحضاري: يتجلى ذلك بوضوح في تركيا التي تمثل نقطة التقاء تاريخية بين "الشرق" و"الغرب"، مما ساهم في ازدهار وتطور النشاط التجاري فيها بشكل لافت.

د. مناخ معتدل ومناسب في الشتاء: يتمتع الشرق الأوسط بمناخ شتوي مريح نسبياً، مما يجعله وجهة سياحية جاذبة ومفضلة لسكان الدول الأوروبية.

السلبيات والتحديات:

1. النفط كبؤرة للتنافس والنزاع: يُعد النفط سبباً لتأجيج الصراعات بين دول المنطقة من جهة، ومطمعاً للقوى الكبرى المتنافسة على توسيع نفوذها وهيمنتها على مقدرات الدول من جهة أخرى.

2. **احتقانات وتوترات بين القوميات والإثنيات:** تمسك بعض الجماعات السكانية الشديد بتقاليدها وهويتها الثقافية، ومحاولة فرضها أحياناً على أقليات أخرى داخل الدولة الواحدة، أو على النقيض سيطرة أقلية حاكمة على الأغلبية وفرض سلطتها بالقوة.

أسئلة حول: أهمية الشرق الأوسط - إعداد: أيليت كاتس (אילת כ"ץ)

1. أ. اذكر اسمين لمضيقين بحريين أو قناة مائية في الشرق الأوسط، وحدد الموقع الجغرافي لكل منهما.

ب. بيّن الأهمية الجيوسياسية لأحد هذين الممرين المائيين.

ج. صف حدثين جيوسياسيين وقعا بعد عام 1945 وأسهما في تعزيز مكانة الشرق الأوسط كبؤرة للاهتمام العالمي.

2. أمامك العبارة التالية: "يُمثل موقع الشرق الأوسط مفترق طرق وجسراً يربط بين ثلاث قارات".

أ. اشرح المقصود بهذه العبارة.

ب. أعطِ مثالاً إيجابياً من الماضي أو الحاضر يوضح كيف ساهم موقع الشرق الأوسط في ازدهار وتطور بعض الدول أو المنطقة بأكملها.

ج. اعرض واشرح مثالاً من الماضي أو الحاضر استُغل فيه الموقع الجغرافي للشرق الأوسط بشكل سلبي وألحق ضرراً بنمو وتطور المنطقة أو بعض دولها.

3. أمامك قائمة بالمضايق والممرات البحرية: مضيقا البوسفور والدردنيل، مضيق هرمز، مضيق باب المندب، مضائق تيران، وقناة السويس.

أ. اختر اثنين من القائمة، وحدد موقعهما (بين أي بحار يربطان)، واشرح أهميتهما الجيوسياسية والاقتصادية.

ب. أمامك عدد من الأحداث التاريخية: حرب يوم الغفران (من منظور تأميم النفط وسلاح النفط ومنظمة أوبك)، حرب الخليج الأولى (1991)، حرب العراق وإيران، وحرب الخليج الثانية (2003). اختر حدثاً واحداً، صفه بإيجاز، واشرح دلالته وأهميته في تعزيز مكانة الشرق الأوسط كمركز جذب واهتمام عالمي.

4. يُطلق على الشرق الأوسط لقب "جسر بين القارات":

أ. أعطِ مثالين على أداء الشرق الأوسط لوظيفته كمفترق طرق ومحور عبور للنقل البحري وللنقل الجوي.

ب. قدّم مثالين يوضحان مدى تأثير الأحداث والتقلبات السياسية على عقد ومفترقات النقل والمواصلات الواقعة فيه.